الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس، مؤلِّف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ - عزل الوزير سماجة

ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر

وإنّــه، لما تهدَّنَـتْ لنا الأحوال وقـرَّ مُلْكُنا قـرَارَهَ بمُصالَحـة المُعْتَمِد، ومُعَاقَـدةِ الرُّومىِّ علـى المُهادَنـة، وتَوْطـينِ النفس على ما نُعطِيـه[1] فى العام، انصرف نَظَرُنـا إلى إصْلاح أمْر بلادنا، والفتش على رَعِيَّتنا، والكَشْفِ على العُمَّال إن كانوا عادِلين او ظالِين. ولمّا شعر بذلك خَدَمَتُنَـا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحتنا، انتدب جميعُهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على مـا خفـى عنّا زمانَ تلك الفِتْنة، فكُنّا لا نقبل من أحَدهم على الآخر إلا بعد رويَّةٍ وهجوم على الحقيقة، حذرًا أن يكون مقال أحَدِهم حسدًا للآخَر أو طَلَبًا لا يُتَّقَى الله فيه.

وكان سِمَاجَة، وزيرُ دَوْلَتنا المتقدِّم ذِكْره، قد شعر بذلك وأحسَّه مِنّا، فاغتمَّ للأمر * [ق ٣٥ أ] وعملٍ فى نفسه، وشكاه إلى إخوانه، وكان فيما قال لهم: «إنّما كُنَّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكن من دَوْلته مدَّةَ أيَّام صبوته، يعنى صغرَ سـنّه. وأمَّا الآن، فلَسْـنا نَجد سـبيلًا إلى ردِّه عن دَوْلته، لا بفِئَةٍ تحمينا، ولا بصغر سن نَجد به السبيل إلى صرفِه عند العامَّة وتسفِيه رأيه، لا سيمَّا إذ كان رأيُه النظَرَ من دَوْلته والبَحْثَ عنها.» فقيل له: «لَسْتَ[2] تَجد سبيلًا إلى أكثر من المُداراةِ له، والإتيانِ لمرغوبه، وقلّةِ الخِلاف عليه لئلا يتمكن عدوُّك منك، ويشـتفى حاسِدك عليك، فهو، إذا وجد منك الذى يرغب، لم يلبث أن يُمِلّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفَوِّض الأمْرَ إليك! ثمَّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله على راحته! وعليك بإشغالِهِ بالنسـاء، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق! ولَسْنا نأمن أن يكون يشنأك من تَحْجِيرك هذه الشهوات عليه، فإنّه نَظُنُّ به ما يُظَنُّ بمن كان فى سنّه!».

ففعـل ذلـك. وكانت هذه الفـترُة التى دبَّرها من سـعادتنا وتمكيننا مـن آمالنا فى الذى ذَهَبْنا إليه من الاسـتبداد بُملكنا، فإنّه شَـبَّكَ علينا المَعاقِل ببنى عّمه، وأشَـدُّها علينا مدينةُ المُنَكّب. فجعل يطلق لنا العِنَان فى كلِّ ما نُريده، واشترى الرقيق، وجَعَلَنا نَخرج إلى النزاهة فـى البلاد، يُرى بذلك الإنصـاف والتأَنِّىَ، إذ كان الرجل متَثَبِّتًا، خائفًا من سـوء العاقبة،

(١) أصل: «نعطوه».

(٢) أصل: «ليس».

مع أنهّ كان خائفًا من قبْل ذلك من أجْلِ كُتُبٍ استَعْمَلها على ألسِنَتِنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهَاجَة يأمرون فيه بقتله، ونَحْن بـراء منها، فظفر بالكُتُب، وأنزل بنا التهمة، وأمر بقَتْل أُولئك المُسَمَّين فى الكُتُب، وغَيْرِهم ممَّن اتُّهِم من كَرَائم باديس - رحمه الله.

وكانت تلك المعانِي مقدِّمـات تُغازلُه لعَزْلَتِه. فلمّا كانت وجهتنا إلى وادى آش عن اختيـاره، وقد كنتُ علمتُ معتقَده فى ذلك كلّه بالقياس والمَيْز مع بعض الأخبار، قلتُ فى نفسى: «هذا رجل قد اعتاد الأمْرَ * [ق ٣٥ ب] والنَّهْىَ، ورأى من يَقْظَتنا للدولة ما لم يكن يُريده؛ وليس فعْله هذا بهواه؛ وكل شيءٍ يضطرُّ فيه الإنسان، فإلَيْه لا يؤْمن خلافه، والرجعة عنه، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه! فنكون أبدًا نكابد منه مالا يوَافِق! وإن فاتَتْنى هذه المرَّة، أكُنْ كَمَنْ نُبِّه على أمْرٍ وحذِّر من نفسه، ثمّ أوبق نفسه إلى المضرَّات. وإن أغْضَيْنا هذه المرَّة وعاد إلى ما كان، ثمّ نَرَى منه خلافًا، لم نقدر عليه بشيءٍ، إذ يكون نَظَره لنَفْسه أجْوَد من هذا النظر، فإنَّ هذا الأمْر جاءَه فجأةً لم يحتسبْه ولا ظَنَّ به: والفُرَصُ تُمرُّ مرَّ السحاب! فمادُمْنا[1] نَحْن بالخيار عليه، لا نتربّص حتى يكون هو بالخيار علينا!»

فأراد إشاعة عَزْلَتِهِ بالحضرة عند إمكانِ السَّفَر، فلم نَرَ لذلك وجهاً إلاَ ونَحْن خارجون عنها، ليكون أشْنَع فى الناس وأقطَع ليأس الرعايا، مع انِّى، إذا حركتُ هذا بالحضرة، دخَلَتْه الضِّناعة، وكتم عن الناس، وشغَّبَت امرأتُه من الدار.

فلما وَصَلْنا وادى آش، جعلتُ من يدوس إلى الرعيَّة أن ترفع بمَظالِمها؛ وكان عامِلَها ابْنُ أَبى جوش، صَنيعةَ سِمَاجة المذكور؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافة. فأنكر الناس ذلك، وهان عليهم أمره. وجمعتُ الرعايا والوزراء، وحَدَّدتُ لهم حَدًّا يَقِفون عنده ألاَ يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِطةً، وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفسه، وأن لا وزير لدَوْلتى إلّا نفسى، وحَددت لكلّ خادم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدَّى سِوَاها. فسرَّ بذلك جميع الوزراء، إذ تساوَتْ أقدامهم، وانكشف حِجابى لهم، لكى تكون حوائجهُم إلىَّ دون من هو مِثْلهم أو دونَهم. واغتبط الرعايا بعزلة الظلَمة عنهم. وعزلتُ كلَّ من يُتَّهم بخيانة، وقدَّمتُ عُمَّالاً إلى الجهات، أريد تجديد الدولة. وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون، ولقد كان فريقٌ منهم، لمّا سمعوا بذلك، يفِرُّون منها ويتْرُكونها حتّى يوَجِّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ. ولم نَلْقَ فى ذلك * [ق ٣٦ أ] كُلَّه مَشَقَّةً. ولم يَبْقَ إلاَ ابن عَمّ له، صاحِب المُنَكَّب، فجزع، إن تَرَكَهُ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبه، فأخبرنى بالأمر، وسألنى إرْسال قائدٍ إليه، فعزُل. وسأل زَاوِىُ زوالَ أخيه بَلْبَار عن وادى آش. فكان ذلك كلّه على أمْكَن سعادة وأجْوَد تقدير، للذى شاء الله من تمام أيَّام وزَارته.

ثمَّ أَمنْتُهُ فى نفسه، وأبقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إلاَ الذهب والفِضَّة، وسوَّغْتُه إنْزالاً ينعاش فيه، وأمَرْتُه بلزوم مَجْلِسى وأنَّه مُكَرَّمٌ طول حياتى. فقَبلَ الرجلُ ذلك كله، وأطاعنا فى كلّ أمْر أرَدْناهُ دون خِلاف ولا إظْهار لمَعْصية، فإنّه كان جزوعًا، قليلَ الجرأة على العظائم،

---

(١) أصل: «مادام».

ولأنَّـه لم يَجِدْ فَئَةً تُعينُه. ولِتَقتى بذلك أَمْنُتُهُ فى نفســه، ومضى عليه دَهرٌ طويلٌ على لزوم المَجْلِس دون خِدْمة، فلم يَتْرُكهُ.

وخــاف منــه مَنْ سـعى فى أمره من أهـل الدولة، وتوقَّعـوا منه العودة، فلـم يزالوا يُغْرون بـه، وينقلون عنه من قبيـح القول، ويخافون من مغبَّة أَمْره، ما لم نَرَ معه وَجْهًا لإمسـاكه فى البلدة، احتياطًا على أنْفُسـنا، ورُبَّما كدحت بعضُ تلك الأَقاويل، فَهلَكَ من أَجْلِها. ولا اسْتَطَعْنا حينئذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب في صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ، لشركته فى ذلك مع سِـوَاهُ من شـيوخ تَلْكَاتَة، فيسـوء ظنُّ الجميع، وتفسد من سَبَبه الأحوال، فلا يقوم فسـادُ المَمْلكة وسـوءُ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدِّ. فرأينا من الصواب أن يرتحل عنَّا دون تغيير ولا إبلاغ فى عقوبةٍ، استمالةً لأَنْفُس الناس، وبَسْطًا لأموالهم. فخرج بجميع أثاثه وخَدَمه ودَوابِّه وجميع ثيابه وفرشـه، مشـيَّعًا إلى المَرِيَّة. فكان المُعْتَصِمُ يُكرمـه من أجْلِنا، ولا ييأس أن نصرفَـه إلى منزلتـه، فيقدِّمَ ذلك الإكرامُ عنه. وخَرَجَت امرأتُه بحَلْيٍ كثير من الجَوْهَر، حاشـى ما خفى عنَّا من المال *[ق ٣٦ ب]، وإنَّما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضَّة أوَّل ولايتنا، وَقْتَ فَتْح بيتِ المال، ولم نتحقَّق ما اكتسب منها مدَّةَ خِدْمَته لنا، ولا بَحَثْنا عن ذلك.

٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المَرِيَّة
تعاقب أحداثه وحله

ثُمَّ قُمْنَا من بعده فى أمور البلاد والرعايا بأحْسَـنِ قيامٍ وأتَمِّه، وجَعَلْنا الأَمناءَ على البحث والتعقُّب ورَفْع المَظالم إلينا. ودام الأَمْرُ على ذلك دَهْرًا طويلًا.

وإنَّــه، فى إثْر مَضى سِمَاجَة المذكـور إلى المَرِيَّة، بَلَغَنا أنَّه حقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطمَّعه فيهـا، لِمَـا كان يَـرَى من طمـع الرجل الذى قد شـهر به – رحمـه الله – ، فإنَّه كان كثيرَ الطمع، قليلَ الجسـر، ضعيفَ المنَّة. فعمل قَوْلُه فى نفســه، ورَجَا ان ينالَ على يدَيْه فُرْصةً بُمداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَوْضِعٍ فائدةٍ، كالذى تَهيَّأ له مع اليهودىّ.

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قَائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورى مُشاجَرةٌ على الجهات، ولم يتهيَّأ حيازةَ ذلك النَّظَر إلا بُبْنيَان المُنْتُورى المذكور. وقد كُنْتُ، عند وجهتى إلى فِنْيانَة، أرسلتُ إليه رسـولًا يُعلمه بورودى عليه، وسـأَلْتُه تلـك القُرَى المصاقِبة لها وإنهـا أَوْلَى بذلك المَعْقِل لقرْبها، وتطارَحْتُ عليه فى المُكارمَة بها، فكان من جوابه للرسول: «هَيْهات! ليست[1] تُمْلَكُ الأَقطارُ إلَّا بالبُنيان والسَّـيْف!» فلمَّا عملتُ مُهمَّ ذلك الحِصْن على المَرِيَّة، وبَلَغَنى ما كان من تطميـع سِمَاجــة، وتذكَّرتُ مُراجعته عن القُـرَى، أغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّـرْ أن عاجَلْنا بُبْنيان ذلـك المَعْقِـل. فقام على المقام بالجِدِّ والقـوَّةِ، وجَعَلْنا فيه حُماة الرجــال، وضاقت المَرِيَّةُ من أَجْلـه، واحْتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها، تَوَقُّعًا أن نسـبق إليها، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورى. فقام بُنيانُها على سـاق، وصارت كلُّها حرزًا للجهــات التى لنا، وأَقفالًا عليها، وضَرَرًا على

(١) أصل: «ليس».

جهات المَرِيَّة. فعيلَ بالأمر، وضاق به ذرعًا، وكان لا يُوجِّه *[ق ٣٧ أ] عسكرًا إلى موضع إلاّ هزِمَ، وأسَرْنا كبارَ رجاله على طُرَّلْبش.

وكان عِدَّةُ ما بُنِى عليه سبعة حصون. وكنتُ مع هذا آمُرُ (١) أهْلَها بالرفْق وحرْز جهاتها ألّا يتطرَّق إلينا طالِبُ شر. وإنّى إنما بَنَيْتُها صَولةً وتَهَيُّبًا، حتى نُصالحَ الرجُلَ على ما يَقع بموافقتنا، ويعرف أقدارنا. وإنه، لما ظهر من كَلَب الرُّوم على الأنْدَلس ما ظَهر، ورأيتُ نفسى ظافِرة ستى رُمْتُ مع ابن صُمَادِح فِتْنةً، وتبيَّن لى ضعفُه عن المناظرة، صرفتُ نفسى عن التمادى والإلحاح، وقلْتُ: «أنا فى مِثْل هذا مُدْرِكٌ! لا يفوت من الأمر ستى أرَدْناهُ شىءٌ. وحَسْبُنا ما قد ظهر إلينا، فالإبقاء أوْلَى، وإصلاحُ الأمْر مع الجار - وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه - خَيْرٌ من تَهَيُّئنا لقُوِىٍّ لا يُرام! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إثباته لدَوْلته وإبقائه عليه، ولنا فيه أُسوةٌ وقدوة!»

فصالحتُ الرَّجُلَ، وأمَرْتُ بهدم تلك الحصون، ونُشِرَت المَرِيَّةُ من كفن. وتمكن بعد ذلك، ودَنَا، وصار أصدَقَ الناس لنا:

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَةُ أَنْ يُكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتَشاركَيْن فى الحلو والمُرِّ إلى انصرام الأجَل.

٤٤ - توجيه عسكر ضدّ تَميم بن بُلُقّين صاحب مالَقة وأخى المؤلِّف، ونصره إيّاه

ثمَّ لم نلبث بعد ذلك إلّا يسيرًا حتى جاءنا من أخينا تَميم فحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس، وما صنعناهُ بجهات المريَّة، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأولى، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل. فحسب الزمانَ كلَّه واحدًا. ولما سُكِت عنه قبلُ، لهذه العِلّة على ما قدَّمنا ذكره من بدءِ أمره، تمادى على تلك الأفعال فأرسل قَطائعه إلى حرب المُنَكَّب وشَاط، وخُوَيلةً فى إثرها للضربِ على النَّظَر المُصاقب لها. وأتانى أهل تلك الجهات شاكين بالأمر؛ فقلتُ فى نفسى: «هذا إنسانٌ لم يُبصِرْه الدهر، ولا حكمَتْه التجارب: ومتى تركناه *[ق ٣٧ ب] على هذا دائبًا، ولم نؤدِّبْه عليها، تمادى شرُّه، وحسب أنَّ ذلك لهيبته، فازداد، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلٌ!» فلم نجد بُدًّا من تأديبه وزجره، فإنَّ الشىءَتحقره وقد ينمى! وإنما كان ذلك الإغضاءُ لمعانٍ تُوُقِّعَتْ، وانتظارًا به لحسن العودة وروِيَّة البصيرة. فإذا قد يَئِسْنا من هذا وأَمِنَّا ما يُشْغِلنا عنه، فَتَرْكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق!».

ووَافقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعْتِمد بأمر أُلْفُونْش، فإنَّه نازَلَ إشبيلية لتباعات تسبب بها، وضاقت الحال من أجْله. فاتَّفق الأمر وتهيَّأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فُرصة، فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر، فوالله! ما سمع بنا أهلُ حصوبة، ولم نتدارَك بالخروج صبيحة ذلك اليوم، حتى وَرَدَ علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالَحة أنَّه صار فى مِلْكِنا وطاعَتْنا رعيَّته، وهو حِصنٌ

(١) أصل: «نأمر».

أوّلُ من يطوع وآخِرُ من يعصى لذَوى الغلبة والظهور، فاستبشـرنا بذلك. وصِرنْا إلى الحَمَّة، نروم منها أمرَ ذلك النَّظَر. فأعْلِمْتُ بصَخْرة دُومِس (ولا معنَى لِرَبَّة إلاّ بها، وهي موسـطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جلُّ عساكر مالَقة مع قوّاد صاحِبها. فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكة، كان أمْرُ غيرها يسيرًا هيِّنًا. فاسْـتَعددْنا لقتالها، وضارَبناهم فى أوّل النزوع عليها. فجزع مَنْ فيها من الجُنْد، وأرسـلوا إلينا تلك الليلةَ يطلبون الأمان، ويخرجون بخيلهم سـالين فى مهَجهم. فأجبْتُهم إلى ذلك، عسى أن نكون نستميل غيْرَها بهذه الأيادى، وأخلوا الصَّخْرَةَ، وصار فيها جُنْدُنا.

وانتقلْنـا عنهم إلى حِصْـنٍ كان صاحبُ مالَقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوّلَ قيامه، على ما رسمناه، فلم يكن إلاّ سـاعة قدومنا عليه وتخاذَلَ مَنْ فيه، ودُخِل قسـرًا، وهو حِصْن أشْتَنير. ثمَّ نَهَضَنا إلى مَرِيَّة بَلِّش، فألقت بيدها. وأدرتُ التمادى إلى بِزِلْيانة.

وكان كَبَّـابُ *[ق ٣٨ أ] بـنُ تَميـت صاحبُ أرْجُذونة، قائدنًا، قد اسـتقْلَك فى تلك الجهة، وزعم أنَّه لا يتعزَّل إلينا. فلمّا رأى ظهورنَا فى هذه المعَاقِل،

خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه، فرام ان لا نَصِلَ إلى بِزِلْيانة وحذّر من ذلك. وكان وراءَنـا حِصْـنُ مُنْت مَاس، رأيتُ أنه لا تتمكّن لنا مُنازلةُ مالَقـة إلاّ بالراحة منه، فإنَّه يمنع المـيرة إلى المَحـَلات. فانصرَفْنا من بِزِلْيانة نريد مُنْت ماس المذكـورة، وأظْهَرْنا لكبّاب الأخْذ برأيه، فسرَّ بذلك.

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس، رأيتُ مَعقِلًا عظيمًا، قد اجتمعت به جميع الرعايا، فعَرَضْنا عليهم الطاعة، فأبَوا، خيفَةً منهم أن نكون غدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهُم، فأمناهم من ذلك، واجتمع فيه كلُّ فاسِـقٍ من أهل الشرِّ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأنفُسنا، وتَركناهم على ذلك، ورتَبْنا عليهم الرُّتب وانصَرَفْنا إلى غرناطة، وفي انصرافِنا، طاعَتْ لنا غيرُها من المعاقِل، مثل أيْرُش وصَخْرة حَبيب. وكُنا فى أوّل وجْهتنا قد أخَذْنا رُيَيْنَة بالسيف قسرًا، وطاعت لنا جُطْرُون، وهُمَا قَصَبَتا مالَقة. وطارت في تلك المدّة عن يده عشرون مَعْقِلًا. وانْصَرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيَّة، ويئسوا من تَرْكهم، وطاع أهْلُها، وثقّفْناها، وهدَمْنا من الحصون ما نسـتغنى عن إمسـاكه بغيره، وأمَّنْتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها، وصار ذلك مُقيَّدًا، وأوْسَقْنا أهْلَها خيرًا.

ولما رأى أخْونا ما دهمه من الأمر، وقيامَ رعيَّته عليه، خاف على نفسه من أهل البلد، مع تَبْريزنا نَحْنُ عن مالَقة في حين أخْذِ مُنْت مَاس. واشتغل بعض الناس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعِنـا، وتبعهم أكثرُ عسـكرنا، فانتهز أهلُ مالَقة الفُرْصة، لمـا رأوه من قلَّةِ مَن فى المَوْكِب معنـا، وخرجوا على بـاب فُنْتَنَالَة، وحملوا على *[ق ٣٨ ب] العسـكر حملةً اختلط فيها الفريقـان. ولـمّا رأيتُ فِرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقة، أمْسَـكْنا على العَلامات، وأمَرنْا بضـرب الطبل بعد توليه، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لما رأوا بثبوت العلامات. ثم كانت لنا عليهم الكرَّة، بعد أن أسـر بعض رجالنا، فأنقذوهم، وهزموا عَسْـكَرَ مالَقة، وكان بها من جُنْد البَرْبَر نحو ثلاثمائة فارِس أنجاد، إلاّ أنَّ الحزم دَاخَلَهم، ونزع إلينا أكْثَرُهُم.

ولمَّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزَّة، أشـار علينـا بالانصراف، وخوَّفَنا من تَقْوية ابن عَبَّاد أن تَدْخُلَها ما لا يُمكن، فقُلْتُ: «إن الانصراف على هذه الحالة عَجْزٌ! وسيشـيع في الجهة كلِّها أنَّ رجوعَنا لم يكن إلاّ عن هزيمة! فالأوْلَى أن نكسِّر يومَيْن نُبَرِّزُ فيها كلّ يوم في الموضع الـذي الْتِحَمَـتْ فيه الْخَيْلُ، نُريهم: إن كانت بكم قدرة، فعَاودوا ما فَعَلتُمْ» وثَقَّفْتُ العسـكر لئلّا يطيش منه أحَدٌ. فكان ذلك. وأقْلَعْنا بعزّةٍ حتى وصَلْنا نَظَرْنا على أتَمِّ ما يُمكن. ولو رَفَعْنا أوّل تلك الوهلة، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التي طاعت لنا، وكأنَّنا ما صَنَعنا شيئًا.

فَبَقِيَت الحال ضيِّقةً على مالقَة. وأرسل إلينا أخونا، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة. فدبَّرْنـا أَمْـرَه في أنفُسِـنا، وعملْنا فيه رأيًا سـديدًا، وعلِمْنا ما هو عليه من الحَرْص والشـره والحـدَّة، وأنَّ صَـرْفَ المَعاقِل إليه تَقْوِيَةٌ لشـرِّه، وأنّه، وإن عـاوَدَ بما كان عليه، لم تقدر له على شـيء، ولا تطوع بَعْدَها رعيَّتُه إنَ أرَدْناهم بَعْدُ، لِمَا يَرَوْن من إسـلامنا لهم إليه، وخافوا أن يُعاقِبهـم، مـع ما كانوا ينقمون عليه من سـوء الطريقـة معهم، يُعْلنـون بذلك. وأخذوا منّـا ميثاقًا غليظًا ألاّ نُسْـلِمَهم إليه، وعاهَدْناهم على ذلك بأيمـانٍ مغَلّظة. وظهر من أقاويلهم أنَّهـم، متى رُدُّوا إليه، لم يجيبوا، وأدخلـوا الداخِلة، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا. فخِفْنا من هذه * [ق ٣٩ أ] الوجوه ما يجب أن يتوقَّع.

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهًا في الإلْحاح عليه، فرُبَّما أخْرَقَ، وصَيَّرها إلى سِوانا، كالذى صنع ماكْسَن عُمنا بَجيَّـان. فتكون مُصيبةً للبلدة، وعارًا عظيمًا، من تَوْليج أخينا وشـقيقنا إلى غَيْرنا، وتغريبه في البلاد، وأُمُّه في قيد الحياة، ولو لم تَكُنْ. فأبقَيْنا عليه، وقد أَدَّبْناه [1] بما كفي، ووسـعْنا عليه في النَّظر ممَّا لم تَبْقَ فيه من الرعيَّة، وكان مُهِمًّا عليه، وأخْلَيْنا له رُيَيْنَة وجُطْرُون. فإنَّ رعيَّتها نصـارى، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن، لا يقدرون على نفاق مع أحَد، وأعطيناه قُرى يتَّسـع فيها لمَرافِقِه. وبقيَتْ بيده حُصُون الغَرْبيَّة مِثْل قَرْطَمَة، ومِيشَش، وخُمَارِش، وأعطيناهُ قَامَرَة، بَلَدَ الزرع، ليتَّسعَ فيها للحَرْث. وحرَّمْناهُ غَيْرَها، التي يتوقَّع من أهْلها ومنَه: إن استأسَدَ بها، لم يؤْمَن شَرُّه.

وَبقِيـتْ حالُـه فـي أفضل الأحـوال، مارَضِيَتْ به الوالِـدة وحَمِدَهُ جميعُ النـاس، صِلَةً للرحم، وعَفْـوًا عنـد المقدرة، وتأديبًا لما يخشـى عاقبته. وقـرَّ حالُه قرارَه، ونَفْسُـه في هذا علينا حاقدةٌ، تَبْلُغُنا عنه أقاويل سـيئَةٌ، ونحن لا نعـرج عليها ونقول: «إضْرَارُه بالقول خَيْرٌ مـن إضـرارِه بالفعل، لو صَرَفْنا إليه المَعاقِل! وعَلِمْنـا أنّه في عافية ونعمة طائلة ممَّا عنده من الأمـوال التـي ترك جدُّه بمالقة، لم يحوج قطّ إلى نفقة دِرْهم منهـا، ولا نالَتْه فِتْنةٌ، ولا بلغة مكروهٌ، وكُنَّا نَحْن أَمامَهُ نُقاتِل عنه العَربَ والعَجَم، ونعطى عنه الجِزْية، وهو في دَعَة. فإذا كان بيـده فوق مـا يكفيه لِقِلّةِ تَموُّنه واحتياجه إلى نفسـه في التَمـوُّن [2] والنفقات، فإنَّ هذا كثيرٌ، وهو تحت نِعَم جَّمة!» فطابت أنفُسُـنا على ذلك، وكَفَّ هو عن كثير ممّا كان يرتكب

---

(١) أصل: «ودبناه».

(٢) أصل: «الفتون».

من القتل والظلم، حتى أنّه لا يَردُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده *[ق ٣٩ ب] إلّا ويوصّى أن نشـدّ بيدى عليه، ويقول لى: «بتأديبك له فَلَحْنا وكفّ عنّا، وإنّه، متى يأمن منك أمْرًا، طغى علينا، وشـقينا به. وما فى الدنيا أشْـعَرُ منك فى إمساك تلك المَعاقِل عنه، فإنّـك كنت بعد هذا لا تلجمـه أبَدًا!» فخرجت الأمور خَيْرَ مَخْرَج، وأمَّنّا جِهَتَه بسَـتْره فى مكانه، ولم نفجع فيه أمّه.

٤٥ - ذكر ثورة كبَّاب بن تَميت وثورة بنى تافْنَوُت ونهايتهما

وإنّ كبّـابَ بن تَميت، قائدنا بأُرْجُذُونة وأَنْتَقَيْرة، لمّا راى ظهورنا على مالقَة، أكْبَرَه ذلك وشقّ عليه، وعَلِمَ انّ الأمْرَ منْجزٌ إليه، إذ كان قد أضْمَرَ نفاقًا وطاعةً فى معَصِيةٍ، لِمَا تأسَّس له هناك فى حين الفتنة من ضَمّ الأطْعِمة، والاستحواذ على أموال الناس بقَطْعه السُّبُل، وانقطاع أهل الشـرّ إليه من كلّ قطرٍ، وكان أمْرهُ من ذُنُوب سِمَاجَة عندنا، الذى سـوَّغة البلد، وجَعَلَه مِلْـكًا فـى يده ويدى بنى عمّه، حتى شـقى به. ولمّا تمّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِـد بن عَبَّاد، خالَفَنا فيه، وجعل يُفسـد وينقض ما أبْرَمْناه من ذلك، ولا يقرّ عن الضرب. فجَعَلْت أقدمُ إليه المَرّة بعد المَرّة، وأنذُره عاقِبة اتّباع هَوَاه، وأقولُ له: «إنّ للمُصالَحةِ وقتًا ينبغى للمَرْءِ حِفْظُها، فإذا أفْسَـدْتَها، فأنْتَ مـن المُطالَبين لى!» فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلّـه، ولا ينفع فيه وَعْظٌ، لإعجابه وتحامُقِـه، وكانت كُتُبُ المُعْتَمِد أبَدًا تَرِدُ بالشـكوى منه فأضمر لنا من كفّه غائلةً. وكانت من سـعادتنا أنه لم يجمل المعاملة مع أحد الفريقين فلما طال الشـكوى به، قلتُ لرسول المُعْتَمِد: «لا أسْـتَطيعُ على عَـزْل كَبّاب إلاّ بالمُجاهَدة فى مُفاسَـدته؛ فإن اسـتوْثقنْا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه، فنَحْنُ ضامنون لعَزْلَته!» فارتبط معى على أن لا تُقبل له رجعة ولا تُقال له عثـرة. فألْحَحْتُ على كبّاب فـى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن، ثِقةً منّى بما رَبَطتُه مع المُعْتَمِد، فزاد طغيانُـه، وخاطَـبَ على المقام إلى ابن عَبّاد *[ق ٤٠ أ]، يرغب فى تصيير الحصون إليه: فأرسـل إلىّ المُعْتَمِدُ بكتابه، وحضّنى على شـدّ اليد عليه والراحة منه، ففعلتُ ذلك. وهذا ممّا تقـدَّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِد لنا وقِلّةِ خِلافـه علينا مُذْ فارَقَ ابنَ عَمّار، كالذى أجْمَلْنا نَحْنُ معه فى أمْر بَيّاسَة، وقتَ نفاق أهْلِها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه.

وإنّ كَبّابًا قبل ذلك، لمّا رأى صَنِعينا بمالقَة، على ما قدّمناهُ، نظر – فى زَعْمه – لنفسـه وقـال: «هذا ما صنع بأخيـه! وطاعت له الرعايا! فكيف بمن هو عبـدٌ من عبيده؟» وأحسّ ذلـك فى نفسـه ابنُ تَافْنَوْت، صاحبُ مدينتنا، وكان امْرَءَ سَـوْءٍ، كثـير الطغيان، بعيدًا من الخـير، مؤثرًا للشـرّ، وكان له أخٌ بحصن جَرِيشـة، قد سَـوَّغَةُ أيـضًا سِمَاجـةُ إقلِيمَ نِيمَش كلّـه، وطال مكثه فى الحصن سـبعة أعوام، فسـوّلت له نفسـه، مثل مـا أضْمَر كبّاب من النفاق، فتعاقدا جميعًا وتحالفًا أن لا ينعزل أحَدُهما إلاّ بعزلة الآخر.

فشمرتُ للأمر، فأوّل ما ابتدأتُ به النّظر فى أمر ابن تاقْنَوْت، إذ كان أهَمّ علينا منْ أجلْ مَدِينَتَنــا التى كانت بيده، وجَرِيشَــة بيد أخيه. ورأيتُ معاقَــدةَ المُعْتَمِد عليه آكَدَ. إذ علمتُ من حَنَقه على كبّاب أنه لا يقبل له معذرة، فعامَلَنى على ذلك أيضًا بأحسن مُعامَلة. وتَسرَّح بعســكره قُــوَّة إن احْتِيــج إليه لحرب جَرِيشــة، وشــارَكَ غاية المشــارَكة فى التوسُّـط بَيْننا وبَيْنه؛ وأرسل إليه رسوله، يقول له: «إن كنْتَ جَزَعْتَ من رئيسك. فاترُكْ حِصْنه! وأَضْمَنُ لــكَ عنه الحال الصالحة والأمان والإحســان، وإن كنتَ لا تَثِق بهــذا كلّه، فانزلْ إلىّ بعد أن أعطيــك عَهْدَ الله وميثاقَه ألّا أُسْلِمَك إليه أبداً! » فمــا كان جوابُه إلّا إن قال: «وما تصنعون بالحِصْن ؟ » قال: «أصيِّره إلى صاحبه!» فأبى وقال: «إنّما أريد أن أجعل المَعْقِل بيد من يُذِيقه الشرَّ ويتولىّ فِتْنَته!»

فأتانــى ابنُ * [ق ٤٠ ب] الأصْبَحىّ رســولُ المُعْتَمِد، المتوسّـط لخــبره، فقال لى: «اعْزَمْ علــى مُنازلة الرجل! فليــس فيه إلى الخير طريقٌ، وهو متأهِّبٌ للشــرّ، لا يقنعه إلا الإضرارُ بــك!» وكان فى هذا كلّه يقطع السُّـبُلَ، ويُخيف الناسَ، ويقتــل أهل الرِّفَق، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصْن، ماكان أشْـهرَ فى الناس من الشـمس، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشــىءٍ من تلك الجهات.

فاســتخَرْتُ اللهَ علــى منازلته، ومكثتُ عليه ســتّةَ أشــهر، لا نبالى عمّــا ننفق عليه من الأموال، إلى أن رقّتْ حالُه، وأنا فى هذا كلّه أُقدّم إليه وأُبْلى العُذْرَ عنده، وأخوه فى ثقافى. وأمــرْتُ أخاه بــأن: «اكتُبْ إليه أنّى متــى أخَذْتُه على غَيْرِ عَهْدٍ، برّحْــتُ بقتله، وإن كان نــزل على الأمان قَبْل أخْذه، ولو بســاعةٍ، لم يتوقّع مِنّى شــيئًا!» فوالله! مــا تَردُ عليه هذه الكُتُب إلّا ويزداد طغيانًا وشــتمًا وحماقةً، حتى يَسّــر الله أَخْذَهُ، ودُخِلَ الحِصْنُ، وكفى الله شرَّهم، وطهّرهم من البلاد، وأراح منهم العبادَ.

وشــاوَرْتُ كبارَ البلدة وفُقهاءَها فى خَبَرهــم، فَخَيَّرونى فى الذى حضَّ الله عليه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ (١).

فرأيتُهم مستوجبين للصَّلْب، وأنه أدْهَى وأمَرُّ من أن يُنْفُوا من الأرض. فإن شرَّهم لا يؤمن. وكثيرًا مّا كان المسلمون مُرْتَقِبين لِمَا حلّ بهم! ووَالله! ما صرفتُ وجهى لأحَدٍ خاصّةً وعامّةً من أهْـلِ بلادى إلّا ووصف لى من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس. ولقد كان يومُ قَتْلِهم للناس عيدًا كبيرًا من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرّهم.

وإنّ كَبّــاب بــن تَميــت المذكور، لَـمّــا رأى ما صُنِــعَ ببنــى تاقْنَــوَت، زاده ذلك حماقةً واستيحاشًا، وخاطَبَ المُعْتَمِدَ على ما قدّمنا ذِكْرَه. فأرْسَلْنا إليه نُعرض عليه التخلّى عن المَعْقِلَين، فأبَى ذلك، وأعدّ، واســتعدّ بآلةِ الحرب، وضمّ الحرّاسة وأخاف السُّبُل، وقطع * [ق ٤١ أ] الطــرق وأتى بما هو مشــهور من شــرّه. فاســتخرْتُ اللهَ على مُنازلته، وأمــرتُ بضمّ الأجناد

(١) سورة المائدة – الآية ٣٣.

واجتمـاع الأنداب لقتاله، فكان ذلك على أتمّ ما يمكن. ولما أحسّ من نفسـه بالضعف، وأنّه لا مَلْجأَ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلّة إقبال السـلاطين عليه، تَرامَى علينا، وسـأل العَفْوَ، خوفًا أن يحلّ به ما حل ببنى تاقْنَوَت إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة، فأعطيتُه من العَفْوِ ما سـأل، ليكون ذلك قدوةً لِمن سـألَ مِنّا العفْوَ بعد الإسـاءة، فلا يَيْأس مـن فعلها، إن دفعنا إلى مثلها بعدها، وكانت الأُولى عِظَةً وشُغْفَةً لمن نَفَرَ، ولم يقبل الأمان، وتمادى على الطغيان.

وكنّا لا نُقَدِّم شـيئًا ولا نؤَخِّرهُ من هذه الأمور إلا بعد رويّةٍ وفكرةٍ فى العاقبة، ونَدَعُ مشورة النـاس، فإنّا بَلَوْنـا منهم قلّة التحقيق، والنطْقَ على الهَوَى: فإمّـا مَفْتونٌ بأمْرٍ يُزَيِّنه ويحمل عليه، وإمّا كارهٌ لَخيْر أو مطـالِبٌ لأحَـدٍ، فيجـعلنا نخير عن مالا يـطابق هـواه، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [1]. فَلَمَّـا بَلَونا من الناس هذه الشـمائل، وأنّ كل أحدٍ يحبُّ أن تجرى الأحكام على اختياره، رَجَعْنَا إلى إيثار اختيارنا، إذ كان نظرُنا لأنْفُسِنا أرْشَدَ من نَظَر غيرها، «وما حَكَّ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ! [2]».

وكُنّا مع هذا نَصْغَى إلى قول الناس بالأُذُن، لا بالعَقْل، فنقيس عليه ونختَبِر مُرادَه، ولا نُريه الخلاف، فنُوحِشَـه، غيْرَ أَنّى أُوسِـع لهم صدرى ويَسَـعُ جَهْلَهم حِلْمى، وأقضى بعد ذلك ما أريد، إذا لم أكُنْ على أمْرٍ مجبورًا ولا مقهورًا، إلّا ما قَهَرتْنى عليه السياسة، وما تُحْمَد له العاقبة، كَمَن يتجرّع الدواءَ لِبُرْءِ الداءِ، ولم أكُنْ أغْتَبِنْ لأحَدٍ فى الحقّ من جهالة ولا غفلة، إلّا أن تكـون مسـامحةً وتَغَافُلًا لأمرٍ يُراد، أو مُتباعَـةً للقول فى حينه تَلَطُّفًـا وقِلّةَ خِلافٍ على قائلـه، ثـمّ أصرافه تارات * [ق ٤١ ب] فالجاهلُ عندنا مَنْ إذا أشـارَ برأيٍ، ثم رأى أنه صُنِـعَ ضِـدُّه، أن يعـاودَ القول فيه: فـإن كان فَطِنًا، من العَيِّ التكـرار، وإن كان لم يعلم، فالتذكيرُ به غفلةٌ منه أو اسـتنقاصٌ لمخدومه، اللّهُمَّ إنّه لم يسـمع مـنـه الأولى، فتجرى عن الأُخـرى، ولعلّ خِـلافَ الرئيسِ عليه الأمر قد ظهر له، وخفر عـن القائل. ولم يُرِد اطّلاعَه عليـه، فيكون فـى رأيه البَرَكةَ والخير للفريقـيْن، وهو يلوم على ما لا يعلـم أصْلَه ويتمادَى جهالةً، وينطق هَذَرًا، وتنحرف نيَّتُه على غير معنًى، فيكون ظالمًا لنفسه.

فأوْدَعْنـا كَبّابًـاً حِلْمًـا، وأمَّنّاه، وبقى فى جملة الجُنْد تحت إحسـان وإجمال، غَيْرَ أنّى لم أَسْتَعْمِلْهُ فى مَعْقِل، ولا مَكَّنْتُه من صخرةٍ، إذ «لا يلدغ مُؤمِنٌ من جُحْر مَرَّتَيْنِ [3]».

* * *

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٢) انظر «مجمع الأمثال» للميدانى (ط القاهرة، ١٣١٠) ، جـ ٢، ص ١٤٧.

(٣) انظر «مجمع الأمثال» للميدانى ج٢ ص ١١٠.